المنبوذ

نهار خارجي: قرية دندنة – القليوبية – ٢٦ ديسمبر ١٩٥٦.. ليلة من ليالي الشتاء، السماء كعادتها ملبدة بالغيوم، تعانقت السحب، وأمطرت، بين الحين والأخر تنشق السماء عن أضواء برق مصحوبة بهزيم رعد هادر، أضفي علي القرية لوحه كئيبة، أعلي منزل طيني كاد أن يذوب تحت وطأة الأمطار، جلس «جابر» يراقب الطريق بعيون ملؤها الرعب، ينتظر زائر لم يدعوه، يعلم أنه لا يضمر له خيرًا، لذا وقف في هذا الجو قارص البرودة يرقب الطريق.

في الأفق تحرك ركب من ثلاث سيارات عسكرية، يحيط بها عشرات الجنود والخفر حاملين أسلحتهم النارية، لم تهتز أبدانهم لبرودة الجو، لم يبالوا بما علق بأقدامهم من وحل، من اعلي منزله شاهدهم «جابر»، خفق قلبه ألما، لقد جاءوا من أجله، ارتعدت أطرافه، ليس لبرودة الشتاء، ولكن لبرودة هذا اللقاء، هب واقفاً وكأنه يلتمس غوثاً، راح يخبط علي رأسه نائحاً، «يا خراب بيتك يا جابر.. يا خراب بيتك»، بخطوات متعثرة هرع «جابر» بالنزول علي السلم الطيني باحثا عن مخبأ.

داخل غرفة الخزين الصغيرة، انزوي «جابر» في ركن خلف أجولة الذرة وشكائر القمح، جالسا القرفصاء مُحيطًا جسده الضئيل بحصيرة بالية من الخوص، حاول كثيرا أن لا يصدر صوتًا، ولكنه فشل فشلاً ذريعًا، فقد خلق اضطراب قلبه وارتعاش جسده وارتجافة أوصاله وأنفاسه اللاهثة حالة من الضوضاء، كاد قلبه أن يتوقف من الرعب، ملئ الرعب وجهه المتقيح، كانت نظراته الزائغة للباب وتقلصات وجهه العصبية توحي بأنه ينتظر رسول الموت.

جلس «جابر» في مخبئة يسترق السمع، فانه يسمع الأن أصواتهم، ضربات أقدامهم الثقيلة علي الأرض، أفلتت منه صرخة مكتومة كادت تنبئ عن مخبئه، فعاد يضغط بكفيه علي فمه كيلا يصدر أي صوت، ازداد تمسكًا بجدران منزله المحاصر، ففي صالة منزله وقف شيخ الخفر يصرخ في أولاده وزوجته «فين جابر يا أم العيال.. العمدة مشدد علينا نسلمه للنقطة»، سمع «جابر» صرخات زوجته وطفليه، وتنامي إلي مسامعه صوت اقتحام غرفة الخزين، لم يبحثوا كثيرا، فقد هب «جابر» واقفا كاشفا عن مخبئه، وراح يصرخ «أنا لم أفعل شيئا ... أنا لم ارتكب جريمة».

لم يبالي الجنود بتوسلات «جابر»، فأسرع جابر يتشبث بأي شيء، كان الجنود يجرونه من قدمه وأصابع يده التي برزت عروقه

المشوهة تنغرس في تراب أرض منزله لتتشبث بها في مشهد يذكرنا بمحمد أبو سليم في فيلم الأرض، ولكنها انفلتت لتمسك بقدم اصغر أبنائه مستنجدا به، ففوجئ به ينتفض ويبتعد عنه وكأنه شخص ملعون، فاستسلم «جابر» وترك الرجال يسحلونه فاردا يده أمامه وملقيا وجهه على الأرض حتى غبر التراب وجهة وشعر رأسه، كان يتأمل وجوه أبنائه بعيون زائغة لن تراهم مرة ثانية، وأذان تسمع نحيب زوجة تقف على احد أركان المنزل، تحاصرها فوهات البنادق من كل صوب وحدب، تتابع بعيون دامعة زوجها الذي احتلت جسده روح شريرة جعلت منه مسخ بشع تحسبه شبح.

لم يكن «جابر» يعلم عندما وجد نفسه فجأة في سيارة البوليس إلى أين سيصطحبونه، وماذا سيفعلون به ولكنه لم يعد يهتم بعد أن رأى بعينه نفور أولاده وزوجته، تحركت السيارة وسط حشود أهالي قريته والقرى المجاورة، بصعوبة بالغة تمكنت سيارات الشرطة من الخروج من القرية بـ«جابر»، مرت ساعات طويلة، وجابر ينظر من نافذة السيارة لا يعلم إلي أين سيذهبون به، أخيرا وصلت السيارة بحملها إلي بقعة معزولة في الصحراء بعيدا عن الحياة، بقعة لا تسكنها إلا الأفاعي والذئاب.

ستون عاما عاشها «جابر» داخل تلك البقعة المنعزلة، بقعة أطلقوا علي بابها اسم «مستعمرة الجذام» لا يعلم عنه احد أي

شيء عاش منبوذًا طريدًا من مجتمع لفظه وكأنه جرثومة يخشون أن تصيبهم بلعنه المرض الموبوء، ستون عام عاشها «جابر» داخل المستعمرة حياة «الزومبي» أو «الموتى الأحياء»، تلك الكائنات الأسطورية التي اخبرنا عنها الأدب اللاتيني في أول وصف لمرضي الجذام، ذلك المرض الذي تم الكشف عنه في جزيرة هايتي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

رحلة طويلة قد تستغرقها للذهاب إلى مستعمرة الجذام، لم يجدوا لها موقعًا أكثر بؤسًا من أطراف مترامية من صحاري منطقة أبو زعبل التابعة لمحافظة القليوبية، والتي رغم بُعدها عن عاصمة المحروسة، ومشقة الوصول إليها، وعبور الكثير من الدروب والطرق غير الممهدة، إلا أنها كرحلة قد تكون فرصة حقيقية للاقتراب من ذلك العالم المُخيف، عالم «الموتى الأحياء».

لم تكن الوسيلة الوحيدة للذهاب مستعمرة الجذام متوفرة كما يعتقد البعض، فعليك أولاً أن تستقل قطار أبو زعبل المتهالك من محطة المرج الجديدة للذهاب إلى محطة أبو زعبل، وتستغرق تلك الرحلة حوالي ٢٠ دقيقة، وبمجرد وصول القطار، والخروج من تلك المحطة شبه المهجورة، ستجد العشرات من السيارات الصغيرة، التوكتوك، يقف بجوارها سائقيها ينادون بأعلي أصواتهم بحثًا عن زبون.

«مستعمرة الجذام يا عم الحج».. اختفت تلك الحفاوة التي استقبلني بها ذلك العجوز، فبمجرد أن أخبرته بوجهتي تراجع متذمرًا، لاح العبوث علي وجهه قليلاً قبل أن تختفي، ثم التفت إلي قائلاً، «أعذرني يا بني.. لقد انتهت ورديتي.. وعلي أن أعود إلي المنزل»، كان يبدو واضحًا أن العجوز تراجع بسبب تلك المستعمرة، ارتجافة جسده، عينية المذعورة، حالة الجذع التي ظهرت علي وجهه لوهلة، كلها تنبئ بذلك، استدار الرجل ليجلس داخل سيارته الصغيرة، بينما وقفت أنا لا أعلم كيف سأذهب إلي تلك المستعمرة.

«متشيلش هم يا أستاذ.. أنا مستعد أوصلك لحد باب المستعمرة».. صوت يبدو طفوليًا جعلني ألتفت إليه، طفل صغير، لم يتخط الثامنة من عمرة بعد، طويل القامة نوع ما بالنسبة لسنه الصغير، أسمر البشرة، يعاني من عرج غير ملحوظ بقدمه اليمني، فبادرته قائلاً بشيء من الاستخفاف، وهل تعتقد إنك تعرف الطريق، فأجابني بلهجة لا تقل استخفافًا، إنه منزلي يا أستاذ، نزلت عبارة الطفل علي رأسي كالصاعقة، فذلك الطفل أحد الموتي الأحياء.

طيلة الطريق إلي مستعمرة الجذام لم يتفوه أحدنا بأي كلمة، تفرغ الطفل لقيادة ذلك التوكتوك المتهالك بين مزارع التين

الشوكي، بينما تفرغت أنا لمراقبته في توجس، رغم علمي بأن ذلك المرض اللعين لا ينتقل باللمس أو حتي بالهواء، إلا أن جسدي رغمًا عني بدى منكمشًا، بين الفينة والأخري ينظر إلي ذلك الطفل من خلال المرآة المهشمة نظرة لا مبالاه، قبل أن يطلق ضحكة طفولية ساخرة، قبل أن يقول: «يا أستاذ انا صحيح عايش داخل المستعمرة.. لكني معنديش جذام.. أنا أعيش مع أبويا وأمي.. أبويا شغال غفير علي المستعمرة، ابتسمت للصبي وقد أيقنت مدي سذاجتي، أوقف الصبي فجأة التوكتوك أمام باب المستعمرة، قبل أن يقول: «هذه هي المستعمرة يا أستاذ.. لا تقول لأحد أنني أعيش هنا»، أومأت لسائق التوكتوك الصغير واعدًا إياه، قبل أن أتركه باحثًا عن العم جابر.

ها هو أخيرًا وجدته أنه العم جابر في صورته وهيئته، يهيم على وجهه على عكازين، يرتدي حذاء تم تصنيعه بشكل خاص شبه دائري، قصر طوله بفعل بتر أجزاء من قدميه، أسرعت أنادي عليه لأسمع قصته مع تلك المستعمرة، التفت إلي بوجه نحت فيه الجذام وجعله أشبه بأسد، قائلاً بلهجة ريفية مرحة: «لسه فيه حد فاكر جابر... جابر مات من سنين يا ولدي... دفنتوه بالحيا وسيبتوه يعيش مع الديابة والعقارب»، رفع «جابر» عكازية ثم التفت إلي غرفة بتر الأطراف قائلا بسخرية: «الأوضه

دي يـا ولـدي دخلتهـا كتيـر.. وكل مـرة بتمنـي أن السـلاح ينـزل علـي رقبتـي ويخلـص عليـا.. لكـن العمـر طويـل.. وسـنة ورا سـنة عايـش مشـوفتش حتـي ولـدي»، ثـم التفـت ألـي مـرة ثانيـة وراح يلكزنـي بعـكازه قائـلا بحـده مفاجـأة: «ارحـل يـا بنـي... ارحـل لحسـن تتعـدي منـا.. ولا نتعـدى منـك إنـت.. الوبـاء بـره بقـي كتيـر».

كلمـات العـم «جابـر» ألجمـت لسـاني عـن الـكلام، عذرتـه كثيـرًا علـي مـا قالـه، فقـد عانـي الرجـل الأمريـن طيلـة سـتون عـام مضـت، تركنـاه طويـلاً يعاشـر الذئـاب والثعالـب والثعابـين والعقارب، كشـخص موبـوء طردنـاه مـن حياتنـا، حتـي زوجتـه وأولاده لـم يكلفـا خاطرهمـا بالسـؤال عنـه، مـاذا عسـاي أن أفعـل بعـد كل هـذا، غيـر إننـي أسـرعت إلـي فتـي التوكتـوك ليعـود بـي مـن حيـث أتيـت، لأعـود إلـي عالـم الأصحـاء، ذلـك العالـم الموبـوء، الـذي طـرد مـن رحمتـه ذلـك العجـوز.

●●●

يقف في منطقة وسطي بين ميلاده كإنسان ووفاته